صفات عباد الرحمن
١١ - التجاوب مع آيات الله

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن ، في صحبة عباد الرحمن ، الذين ذكرهم الله تعالي في كتابه ، وأثنى عليهم ، وشرّفهم بالإضافة إلى ذاته المقدسّة .

ووقفنا في أوصاف عباد الرحمن عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١) .

هذه صفة من صفات عباد الرحمن : اتجارب مع آيات الله ، قلوبهم مفتوحة ، وعيونهم وآذانهم مع هذه الآيات ، لا يقعون عليها وقوع الصمّ ولا العميان ، ولكن لهم آذان صاغية ، وعيون راعية ، وقلوب واعية .

ولكن ما هي آيات الله ؟

آيات الله نوعان : آيات تكوينيّة ، وآيات تنزيليّة .

الآيات التكوينيّة : هي آيات الله في الكون ، آيات الله في الأنفس والآفاق ، آيات الله التي بثّها في كل مكان لترشد النّاس إليه ، وتدلّهم عليه ، كما قال القائل :

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أو كيف يجحده الجاحد ؟
ولله في كلّ تحريكة ... وفي كلّ تسكينة شاهد
وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه الواحد

آيات الله مبثوثة ، وعباد الرحمن وأهل الإيمان يتجاوبون معها ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

---

(١) الفرقان : ٧٣ . (٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

آيات الله الآفاقيّة والأنفسيّة .. آيات الله في النّفس : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) ، وفي الآفاق .. في السماء والأرض ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

الذين ينظرون إلى هذه الآيات بأعين عُمي ، وقلوب غُلف ، وآذان صُمٌّ ، لا ينتفعون منها بشيىء ، خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يرجعون ، ولا يعقلون .

هذه آيات الله الكونيّة الآفاقيّة .

وهناك آيات الله التنزيليّة ، التي أنزلها الله على رسله : آيات الوحي ، التي ختمها الله بالقرآن الكريم ، وتجلّى الله لعباده في كلماته ، التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ ، فهو يتعرّف إلى عباده بهذه الكلمات من النّور ، أو بهذا النّور من الكلمات .

أنزل اللهّ على عبده ورسوله محمد هذا القرآن ، ليدلّ النّاس عليه ، ليفتح قلوبهم به : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٥) .

أنزل الله هذا القرآن العظيم ، فيه صفاته ، وأفعاله ، فيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، فيه صفات المؤمنين وصفات الكافرين والمنافقين ، فيه بيان مصاير هؤلاء وهؤلاء ، فيه ذكر الآخرة والجنّة والنّار ، فيه الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فيه الأمروالنّهي ، والحكم والأمثال والقصص والمواعظ ، وصدق الله العظيم حين يقول :﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦) .

هذا القرآن آيات الله ، أعجز بها البشر أن يأتوا بمثلها ، أو أن يأتوا بعشر سور

---

(١) الذاريات : ٢١ .
(٢) الذاريات : ٢٠ .
(٣) الأعراف : ١٨٥ .
(٤) يونس : ١٠١ .
(٥) الزمر : ٢٣ .
(٦) النحّل : ٨٩ .

من مثل هذا القرآن أو أن يأتوا بسورة مثله ، ولكنّهم غلبوا ، وانقطعوا وحقّت عليهم كلمة الله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

كان القرآن هو الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى لمحمدّ ﷺ ، كانت آيات الأنبياء من قبل آيات حسّيّة ، كونيّة ، ومن شأن الآيات الكونيّة والحسّيّة ، أن تنفذ وتنتهى بمجرّد وقوعها ، فلولا أنّ القرآن أخبرنا بأنّ موسى - عليه السلام - انقلبت العصا له حيّة ، وأنّ عيسى - عليه السلام - أبرأ الأكمه والأبرص ، ما عرفنا شيئاً عن ذلك ، فهي أصبحت معجزة تاريخيّة .

أمّا القرآن فهو معجزة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنّه معجزة علميّة أدبيّة عقليّة ، ولهذا لمّا طلبوا من النبي ﷺ آية من الآيات الكونيّة ، قال لهم : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، القرآن آية كافية ، لكلّ من كان له عقل وكلّ من كان في صدره قلب : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣) .

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله الدائمة ، وآيته الباقية ، ضمّن الله كلماته الإعجاز ، فهو يدخل إلى العقول والقلوب بغير استئذان ، كتاب مُيسَّرٌ للذكر ، يفهمه الخاصّ والعام ، كُلٌّ على قدر فهمه : ﴿ . . فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٥) .

سمعه المشركون فتأثّروا به ، وقال قائلهم : والله إنّ لهذا الكلام لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق ، وإنّه يعلو ولا يُعلى ، وإنّه ليس من كلام الجنّ ولا من كلام البشر .

سمعه الجنّ فأثر فيهم ، وقالوا : ﴿ . . إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٦) ، ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

---

(١) الإسراء : ٨٨ .
(٢) العنكبوت : ٥١ .
(٣) سورة ق : ٣٧ ، وأوّلها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ . . ﴾ .
(٤) الرعد : ١٧ .
(٥) القمر : ١٧ .
(٦) الجنّ : ١ ، ٢ .

إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

سمعه جماعة من النّصارى فدمعت أعينهم ، وخشعت قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، هم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ، وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

هذا هو القرآن ، يسمعه المؤمنون فتوجل القلوب ، وتدمع العيون ، وتخشع الأفئدة ، كما وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) .

المؤمنون يسمعون القرآن فيزداد إيمانهم ، والمنافقون والزائغون يسمعون القرآن فيزيدهم رجساً على رجسهم والعياذ بالله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٤) .

ولذلك كان بعض الصحابة يقول : ما من أحد يُجالس القرآن إلاّ وخرج بزيادة أو نقصان ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ (٥) ، ﴿ . . قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٦) . لا يسمعون ولا يعقلون ، هذا شأن الناس مع القرآن .

فقس نفسك مِنْ أيّ النّاس أنت ؟ مِنْ أيّ الأصناف أنت مع القرآن ؟ هل يزداد

---

(١) الأحقاف : ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) المائدة : ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) الأنفال : ٢ .
(٤) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) الإسراء : ٨٢ .
(٦) فصّلت : ٤٤ .

إيمانك ؟ هل تزداد خشيتك؟ هل يتحرّك قلبك ؟ هل تدمع عينك ؟ أم أنّك تقرأ القرآن كما تقرأ كلام النّاس ، لا تتأثّر ولا تنفعل ؟

الله تعالى وصف أُناساً من أهل الكتاب بقوله : ﴿ .. إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١) .

كان ابن عباس يقول : إذا قرأتم سجدة (سبحان) (٢) ، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه !

إنّ على الإنسان المؤمن أن يكون مع القرآن متفتّح القلب ، متفتّح الأذن، متفتّح العقل ، ولا يقرأه قراءة المنافقين ، أو يسمعه سماع المنافقين ، الذين قال الله في شأنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا { لم يفهموا ولم يعقلوا } ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) .

هناك المنافقون ، وهناك الكفّار المحجوبون : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. ﴾ (٤) .

على المؤمن أن يفتح قلبه للقرآن ، أن يهتك حجب الغفلة والشهوة والكبر عن قلبه ، فهذه الحجب هي التي تمنع الفهم للقرآن ، والتأثّر به .

الغفلة : أخطر ما يحجب القلب عن الرب ، كما قال تعالى : ﴿ .. وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٥) ، ﴿ .. أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٦) ، الغافلون عن الله .. عن الآخرة .. عن المصير .. عن رسالة الإنسان في هذه الحياة .

---

(١) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) أي آية السجدة التي في سورة (الإسراء) ، وقد سميت سورة (الإسراء) سورة (سبحان) لأنّها افتتحت بهذه الكلمة .

(٣) محمد : ١٦ .

(٤) الإسراء : ٤٥ ، ٤٦ .

(٥) الكهف : ٢٨ .

(٦) الأعراف : ١٧٩ .

الشهـــوة : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (١) ، ذكر الله هذا الصنف بعد صنف آخر أثنى عليه ، بعد أن ذكر مَنْ ذكر من النبيـّين ، قال : ﴿ أُولَئكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبيِّينَ من ذُرِّيَّة آدَمَ وَممَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وممَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِـــم آيَاتُ الرَّحمـــنِ خـــرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٢) .

الكبر : كما قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى ﴿ يصرفهم الله عن فهم آياته والتأثّر بها ﴾ الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخذُوهُ سَبِيلاً . . ﴾ (٣) .

على المؤمن إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يفتح عينه وأذنه وقلبه ، أن يرتّل القرآن ترتيلا ، أن يحاول التفّهم والتدبّر في هذا الكلام الإلهي ، فإنّ الله أودع فيه أسراره وحكمه .

القرآن نزل ليُتدبر : ﴿ كتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا ﴾ (٥) ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنـــدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ (٦) ، فلا بدّ من التدبر .

تدبّر القرآن حتى تحاول أن تتأثّر به ، فبعد التدبر يكون التأثّر .

تجاوب مع كلام ربّك إليك ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ . . ﴾ (٧) ، لو عقل الجبل لتصدّع وخشع من هذا القرآن .

ولكن بعض القلوب أشدّ من الجبال والصخور والحجارة ، كما وصف الله قلوب بني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . . ﴾ (٨) .

---

(١) مريم : ٥٩ .
(٢) مريم : ٥٨ .
(٣) الأعراف : ١٤٦ .
(٤) سورة ص : ٢٩ .
(٥) محمد : ٢٤ .
(٦) النساء : ٨٢ .
(٧) الحشر : ٢١ .
(٨) البقرة : ٧٤ .

حاول أن تتدبر القرآن وتتأثّر به ، قال محمـد إقبال رحمه الله : ما نفعتنى وصيّة كما نفعتني وصيّة لأمّي ، قالت لي وأنا صغير : يا بني اقرأ القرآن كأنّما عليك أُنزل .

وقال بعض السلف : كُنت لا أجد للقرآن حلاوة ، حتى منّ اللهُ عليّ ، فأصبحت أتلو القرآن كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ، حتى رقّاني الله درجة ، فأصبحت أقرأه كأنّي أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ ، ثمّ رقيت درجة أعلى وأرفع ، فصرت أقرأه كأنّى أسمعه من المتكلّم به عزّ وجلّ .

درجات بعضها فوق بعض .

حاول أن تقرأ القرآن قراءة من يشفع له القـرآن يوم القيـامة ، في الحديث : « اقرأوا القرآن ، فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » [1] .

بعض الناس يشفع لهم القرآن ، ويشهد لهم القرآن ، وبعض الناس يتلون القرآن والقرآن يلعنهم ، هكذا قال بعض السلف [2] : (ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه) ، لأنّه يقرأ : ﴿ .. أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [3] وهـو مـن الظالمين .. ﴿ .. أَنَّ لَعْنَةَ الله عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [4] وهو من أهل الكذب .. « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وهو من الذين يقولون مالا يفعلون والعياذ بالله .

اقرأ القرآن قراءة المتدبّر .. المتأثّر .. الذي يقرأ للعمل لا لمجرّد المتعة .

كان ابن مسعود يقول : أُنزل القرآن عليهم ليعملـوا به ، فاتخذوا دراسته

---

(١) رواه مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ ، وتمامه ، « اقرأوا الزهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران ، فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّما غمامتان - أو غيايتان - أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ تُحاجّان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإنّ أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلَة » { المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٧٨٠ ، ٨٠٦ } .

(٢) هو الصحابى الجليل : أنس بن مالك ، كما نقل عنه الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٤) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٣) هود : ١٨ .

(٤) النور : ٧ .

عملاً ، إنّ أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفاً ، وقد أسقط العمل به [1] .

لا يكفي أن تقرأ القرآن ، ولا أن تحفظ القرآن ، وإنّما المهمّ : أن تعمل بالقرآن ، هكذا كان الصحابة ، وهكذا كان السلف ، كانوا يحفظون السورة لا يجاوزونها حتى يتقنوها علماً وعملا ، وتطبيقاً على أنفسهم . قال الحسن : كان من قبلكم يعتبرون القرآن رسائل من ربّهم إليهم ، يقرأونها بالليّل وينفّذونها بالنّهار .

ماذا تفعل حينما تأتيك رسالة من حبيب أو صديق ؟ إنّك تقرأها بعناية ، وتحاول أن تعرف كلّ ما فيها حرفاً حرفا ، وأن تنفّذ ما طلبه منك إن كان له أهمية عندك ، فماذا تفعل بما يطلب الله تعالى منك ؟ .

إنّنا في حاجة إلى أن نقرأ القرآن ، قراءة المؤمنين الواعين الخاشعين ، لا قراءة الغافلين ، ولا قراءة المستكبرين ، ولا قراءة الجاحدين ، ولا قراءة الذين في قلوبهم مرض .

إنّنا في حاجة إلى أن نسمع القرآن ، لنتخذ منه نبراساً لحياتنا ، لنغيّر به حياتنا كما غيرّ الصحابه به حياتهم .

أجَلْ ، ما الذي غيّر حياة الصحابة ؟ إنّه القرآن ، إنّه الذي أحدث ذلك الزلزال النفسيّ والاجتماعيّ فى الحياة العربيّة ، وغيّر الأنفس تغييراً كلّيا .

جاء أعرابى إلى النبيّ ﷺ وسأله أن يُقرئه القرآن ، فقرأ عليه بعض المُفصّل - أواخر القرآن - حتى وصل إلى سورة الزلزلة، وفي آخر السورة قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [2] ، فقال الرجل : حسبى ياً رسول الله ، لا أبالي أن أسمع غيره ! الآيتان وضعتا له القاعدة والقانون : إنّ الجزاء من جنس العمل ، وعلى قدر العمل ، ولو كان مثقال الذّرّة ، خيراً أو شرًّا ! . فعجب الصحابة من رجل لا يريد أن يستزيد من القرآن ، فقال النبي ﷺ : « انصرف الرجل وهو فقيه » ما دام حسبه آية واحدة ، وفي قصّة مماثلة قال : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » [3] ما دام قد فهم هذا .

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٥) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٨٧) : حديث =

كان الإمام الشافعي يقول : إنّ في القرآن سورة وجيزة ، لو عمل بها الناس لكفتهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

هل قرأنا القرآن - أيّها الإخوة - كما ينبغي ؟ هل استمعنا إليه كما ينبغي ؟ هل قمنا بحقّه كما ينبغي ؟

نحن نحمد الله أنّ القرآن أصبح يتلى في الليل وفي النّهار ، ولكن مَنْ منّا يسمع القرآن ليتدبّر ويعمل به ؟ مَنْ منّا يتأثر بالقرآن إذا سمعه ؟ يقول النبي ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » (٢) ، إذا لم يحضرك البكاء فتكلّف البكاء .. تحزّن (٣) ، وإذا لم تجد البكاء فابك على نفسك أنّك لا تجد هذه العين الدامعة .

سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدَّته أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - قال لها : يا جدّة كيف كان أصحاب النبى ﷺ إذا سمعوا القرآن أو قرأوه ؟ قالت : يا بنيّ كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ ، تدمع الأعين ، وتقشعرّ الجلود ، وتخشع القلوب .

= « الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فقال يكفني هذا وانصرف ، فقال النبى ﷺ :انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن بان والحاكم وصحّحه من حديث عبد الله ابن عمرو ، قال : « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يا رسول الله ... الحديث » وفيه : « فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبدا ، ثمّ أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل أفلح الرويجل» .

(١) العصر : ١ - ٣ .

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٧٧) : أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيّد .

(٣) ووجه إحضار الحزن أن يتأمّل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثمّ يتأمّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب (من كلام الإمام الغزالي في الإحياء : ١ / ٢٧٧) .

هكذا كانوا ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس إذا سمعوا القرآن ، أمّا أن يُقرأ القرآن لمجرّد الطرب .. لمجردّ إمتاع الأسماع ، فليس هذا هو المطلوب .

أمّا أن يكون القرآن نسمعه ونحن لاهون ، ونحن عنه غافلون ، لا نقرأه لنعمل ، ولا تقرأه لنحيي به أنفسنا ونحيي به مجتمعنا ، فما هذا من شأن القرآن .

ليس هذا هو القرآن الذي أحدث التغيير والزلزلة في المجتمع الإنسانيّ الأوّل .

ولهذا ليس عجبًا أن نجد إذاعات غير المسلمين - في بلاد الكفر - تذيع القرآن !

لا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة لندن ، ولا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة إسرائيل ، لأنّهم مطمئنّون أنّ القرآن لم يعد يُحرّك فينا ساكناً أو ينبّه منّا غافلا .

لو قرأنا القرآن وسمعناه كما كان الصحابة والسلف الأوّل ، لغيرّ ما بأنفسنا .. لأحدث فينا تلك الثورة الروحية العظيمة .. لجدّد إيماننا من جديد .. لجعلنا خير أمّة أُخرجت للنّاس .

نحن في حاجة إلى أن نحدّد موقفنا مع القرآن :

هل نحن متجاوبون مع كتاب الله ؟

إنّ اللهّ سيسألنا يوم القيامة عنه ، وسيكون شاهداً لنا أو علينا ، نخشى أن يقول القرآن : يا ربّ هؤلاء أهملوني ، حفظوا حروفي وضيّعوا حدودي ، نخشى أن يقول الرسول: ﴿ .. يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (١) ، لم يهجروا قراءته ، ولكن هجروا تطبيقه والعمل به ، كانوا يقرأونه على الأموات في المقابر ، ولا يحكّمونه في الأحياء في المحاكم .

أصبح كتاب الله مهجورا ، وأصبح العمل به مضيّعا ، إنّ الله سائلنا عن هذا القرآن .

عباد الرحمن هم أولئك المتجاوبون مع آيات القرآن ، مع آيات الله - هم قرآنيون يعيشون مع هذا القرآن ، يطبقونه على أنفسهم ، لهم في رسول الله ﷺ

(١) الفرقان : ٣٠ .

أسوة حسنة ، فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » [1] ، من فتح المصحف عرف أخلاق النبيّ ﷺ .. أنّه كان صورة تطبيقيّة ، كان مثالاً مجسّماً ، كان قرآنا حيًّا يسعى بين النّاس على قدمين ، كان مصحفًا مفسَّرًا ، لا يفسّر بمجرّد الكلام بل بالعمل .. بالسلوك .. بالتطبيق .. بالتعامل مع ربّه .. مع أهله .. مع أصحابه .. مع أعدائه .

ليكن كلّ مؤمن - يحاول أن يكون من عباد الرحمن - قبساً من هذا النّور المحمّديّ ، ليكن له في رسول الله أسوة حسنة ، وليكن خلق كلّ منّا : القرآن .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقنا ويجعلنا من أهل القرآن ، ويجعل القرآن شفيعاً لنا يوم القيامة .

استغفروا الله يغفر لكم ، وادعوه يستجب لكم ، إنّه هو الغفورالرحيم .

* *

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

أرسلت إليّ إحدى الأخوات ورقة تقول : في إحدى الجمعات الماضية ، خرجت إحدى المصليّات ، وكانت تلبس لباساً غير كامل الاحتشام ، لا يتفق مع الأدب الإسلامي الذين فرضه الله تعالى على المرأة المسلمة .

وأنا أستغرب هذا في الحقيقة ، فالمسلمة التي تأتي إلى هذا المسجد ، ولا شكّ أنّها تريد وجه الله عزّ وجلّ وتريد أن تستمع وتنتفع ، ولعلها - غالباً - في فترة انتقال ، لعلّ هناك نوعاً من المسلمات يريد أن يُغيّر حياته ، فهو في بداية الطريق .

ولذلك نرجو من الأخوات المؤمنات الملتزمات ، ألاّ يُسارعن بالإنكار على هذا النّوع ، حتّى لا يهربن من مثل هذه المواقف ، دعوهنّ ، دعوا مثل هذه الأخت تحضر مرّة ثمّ مرّة ، حتّى يفتح الله قلبها ، ويشرح صدرها ، ويهديها إلى الّتي هي أقوم .

لا بدّ أن نأخذ النّاس بالتدريج ، لا بد أن نتعلم الحكمة والموعظة الحسنة،

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، عن عائشة رضي الله عنها (فيض القدير : ٥ / ١٧٠ برقم ٦٨٣١) .

النّاس . جميعاً ليسوا في مرتبة واحدة ، إنّ الله وصف الأمّة المصطفاة التي تتلقّى القرآن بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (١) ، درجات ومراتب يجب أن نراعيها ، فمن كان في أوّل الطريق فلنسامحه حتىّ يرقيه الله سبحانه وتعالى - بهداية منه - إلى مرتبة أعلى ، ثمّ مرتبة أعلى .

هناك بعض المقصّرين والمقصّرات علينا أن نأخذهم بالرّفق ، و « إنّ الرفق لا يكون في شيىء إلاّ زانه ، ولا ولا يُنزع من شيىء إلاّ شانه » (٢) ، و « إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه » (٣) ، علينا أن نأخذهم بالرفق وننصحهم ، ليرتقوا من منزلة إلى ما هى أعلى منها .

بعض النّاس (ظالم لنفسه) كما أشارت الآية ، أى أنّه يُقصّر في بعض الواجبات ، ويرتكب بعض المحرمات ، ولكنّه قد ينتقل إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة (المقتصد) ، وهو الذى يقف عند حدود أداء الواجبات وترك المحرّمات ، لا يزيد على الواجب شيئاً ، ولا يزيد على ترك المحرّم .

ولكنّه قد يرتقي إلى مرتبة أعلى ، فيصبح (سابقاً بالخيرات بإذن الله) ، لا يكتفي بأداء الواجبات ، بل يفعل السنن ، ويفعل المستحبات ، ولا يكتفي بالوقوف عند ترك المحرّمات ، بل يترك المشتبهات ، ويترك المكروهات ، بل يترك بعض الحلال حذرًا من الوقوع في الحرام ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع مالا بأس به حذراً ممّا به بأس » (٤) .

إنّها مراتب ودرجات ، فلا تُطالبوا النّاس أن يكونوا كلّهم في درجة واحدة ،

---

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوى : ١٣ / ٧٥ الحديث ٣٤٩٣) .

(٣) أخرجه البخارى ، ومسلم ، عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٣ / ٧٣) .

(٤) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم ، عن عطية بن عروة السعدي ، ورمز له السيوطي بالصحة (فيض القدير :٦ / ٤٤٣ برقم ٩٩٤٢) .

ولا تطالبوا المبتدىء بما يُطالب به المتوسط ، ولا تُطالبوا المتوسّط بما يُطالب به المنتهي ، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

نسأل الله أن يتوب علينا جميعا ، وأن يُصلح فساد قلوبنا ، وأن يُعيننا على أنفسنا وعلى الشيطان .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، . اللهم اغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمنّ سواك ، اللهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى ، اللهمّ انصر إخواننا المجاهدين في كلّ مكان ، اللهمّ واخذل أعداء الإسلام فى كلّ مكان ، اللهمّ أَدِلْ دُولهـــم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

وصلّوا على نبيّكم ﷺ ، فإنّ الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٤) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) الأحقاف : ١٩ . (٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الحشر : ١٠ . (٤) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
١٢ - سؤال الله صلاح الأزواج والذّريّة والإمامة في الخير

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا فى رحاب القرآن ، نعيش في صحبة عباد الرحمن ، هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى فذكرهم في كتابه ، وعدّد أوصافهم ، وبيّن أحوالهم في نهارهم وليلهم ، مع أنفسهم ومع ربهم ومع النّاس ، مع النّاحية الإيجابية ، ومع النّاحية السلبيّة ، مع الأوامر والنّواهي ، فكانت لهم تلك الأوصاف الطيّبة ، التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان .

وبقي من أوصاف عباد الرحمن وصف واحد ، هو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

ما معنى هذا الوصف ؟

إنّهم يدعون الله تبارك وتعالى ، ويتضرّعون إليه ، ويبتهلون إلى وجهه الكريم ، يسألونه أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم ، وتسرّ به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، وأن يجعلهم أئمّة وقدوة للمتقين .

الدعاء يدلّ على وجهة الإنسان ، من كانت وجهته الدنيا انحصر دعاؤه وطلبه في الدنيا ، ومن كانت وجهته الآخرة فهمّه في الآخرة .

ذكر الله لنا مواقف بعض النّاس في موسم الحج ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ ليس له فِى الآخرة من

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

حظّ ولا نصيب ﴿ * وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) ، الأوّلون مذمومون ، وهؤلاء ممدوحون ، محمودون ، لأنّهم جمعوا بين الحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

ومن أراد أن يعرف طموحات المؤمنين وآمالهم ، ومتعلّقات قلوبهم ، وإلى أين تتجه أمانيهم ، فليتأمّل أدعيتهم في القرآن نجد هذه الأدعية تمثّل ما يطمحون إليه .. ما يحرصون عليه .. ما يضعونه نصب أعينهم .

فنجد الراسخين في العلم - كما ذكرهم الله في سورة آل عمران يقولون : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) .

نجد أولى الألباب - في خواتيم سورة آل عمران - يقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ (٣) .

نجد الفتية المؤمنين من أهل الكهف يقولون - حينما أووا إلى كهفهم : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٤) .

نجد إبراهيم الخليل يتجه إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ (٥) .

هكذا نجد آمال المؤمنين في أدعيتهم .

الإنسان يدعو بما هو مشغول به ، بما يهمّه أمره ، ولذلك لو تأمّلنا أدعية النّبيّ ﷺ ، واستعاذاته - ممّا استعاذ الله تعالى منه - نعرف فيم يفكّر ، وإلام كان يطمح ، وعلام كان يحرص .

لقد كان من دُعائه ﷺ : « اللّهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمرى ،

---

(١) البقرة : ٢٠٠ .
(٢) آل عمران : ٨ .
(٣) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٤) الكهف : ١٠ .
(٥) إبراهيم : ٤٠ ، ٤١ .

وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، وأجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير ، واجعل الموت راحة لي من كلّ شر »[1] .

كان يدعو بأدعية جامعة ، وكان يستعيذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، كان يستعيذ بالله من جهد البلاء ، ودَرَك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، كان يستعيذ بالله من الهمّ والحزن ، ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال .

فمن هذا وذاك نعرف : كيف يفكّر المسلم ؟ وفيم يطمح ؟ وإلام يقصد ؟

وهذا هو شأن دعاء عباد الرحمن هنا ، فقد عرفنا منه : فيم يفكّرون ؟ وإلام يرنون ؟ وبماذا يدعون ؟

لقد سجّل القرآن من أوصافهم قبل ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[2] فدلّ هذا الدعاء على اهتمامهم بأمر آخرتهم ونجاتهم من عذاب الله .

وفي هذا الدعاء اهتمّوا بأمر حياتهم ، ولكنّهم لم يهتمّوا بشهواتهم أو متعهم في هذه الدنيا ، إنّما اهتموا بأمر أعظم وأغلى وأبقى .

إنّ أهم ما دعوا الله سبحانه وتعالى به ، وما حرص القرآن أن يسجّله في أوصافهم ، أنّهم : ﴿ .. يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[3] أى : أنهم ليسوا مشغولين بأنفسهم وحدها ، إنهم حريصون على أن يمتدّ الخير والهدى فيمن حولهم ، وأقرب الناس إليهم : أزواجهم وذرّيّاتهم . فهم « .. يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرة أعين .. » .

يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم : من نسائهم ، ومن ذرياتهم : من أبنائهم وبناتهم وأحفادهم ، ما تقرّ به أعينهم ، وإنّما تقرّ أعينهم بهم إذا وُفّقوا إلى طاعة الله وابتعدوا عن معصية الله ، إذا ساروا في طريق الخير .

إنّما تقرّ عين الإنسان المؤمن بامرأة صالحة تسرّه إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ،

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه (فيض القدير : ٢ / ١٣٧ برقم ١٥١٤) .
(٢) الفرقان : ٦٥ . (٣) الفرقان : ٧٤ .

وتحفظه إذا غاب ، وتعينه على طاعة الله ، تحرّضه على الإيمان بالله .. على تقوى الله ، تحذرّه من المعصية ، ولا تقول له : ألست كفلان وفلان الذين جمعوا الألوف والملايين ؟ ما أخيبك من رجل ! تعيّره بالفقر فيركب مركب السوء فيهلك والعياذ بالله .

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها - إذا خرج إلى الكسب يضرب في الأرض ويبتغى من فضل الله - يا أبا فلان ، إيّاك وكسب الحرام ، فإنّا نصبر على الجوع والطوى ، ولا نصبر على حرّ النّار وغضب الجبار .

هذه الكلمة من امرأة صالحة تجعل الرجل يتوقف مائة مرة ومرة حينما تراوده نفسه الأمّارة بالسوء ، أن يخوض في الحرام ، ويرتكب الموبقات ، ويقبل الرشوة ، أو يأكل أموال الناس بالباطل ، أو يحتكر أقوات الناس ، أو يُغلي على الناس أسعارهم ، إلى آخر ما يفعله الناس ليكسبوا من أىّ طريق .

ما أحوج المؤمن إلى امرأة تقول له : قف عند حدّ الله .. تحرّ الحلال .. اجتنب الحرام .. بل اتق الشبهات : « .. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه .. » (١) « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٢) .

المرأة التي تقرّ بها أعين عباد الرحمن هي المرأة الصالحة ، لتي قال عنها ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (٣) ، ليس مجرّد المرأة الجميلة ، أو المرأة الغنيّة ، أو المرأة الحسيبة النّسيبة ، قد يكون هذا ممَّا يتزوّج من

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وهو من أحاديث الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٠٦ برقم ٩٦٦) .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد وصحّح شاكر إسناده ، ورواه النّسائى ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه الحاكم بزيادة وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، ورواه في موضع آخر وقال الذهبي : سنده قوي ، وهو من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ورواه الطبراني بنحوه من حديث واثلة بن الأسقع ، وهذا الحديث هو الحادي عشر من الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٩٧١ ، ١٧٧٣) .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه بلفظ قريب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ ، الحديث ١٠٩٧) .

أجله الناس ، ولكن أهمّ من ذلك كلّه : المرأة المتدينة ، التى تخاف الله ، وتريد لزوجها أن يعيش في دائرة الحلال ، ولأولادها أن يتربّوا في عيشة من حلال .

هذه هي المرأة الصالحة ، إنها كنز عظيم يحرص النّاس عليه .

جاء في الحديث : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله » (١) ثمّ تلا : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ .. ﴾ (٢) فهي عابدة لله قانتة ترعى حقّ الله ، وهي تحفظ غيب زوجها : تحفظه في نفسه ، وتحفظه في عرضه ، وتحفظه في أسراره ، وتحفظه في ماله ، وتحفظه في ولده ، كما جاء في الحديث : « خير نساء ركبن الإبل [أى من نساء العرب] صالح نساء قريش : أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده » (٣) أى تحرص على ماله ، ومن حرصها عليه ألاّ يكسب هذا المال إلاّ من حلال ، ولا ينمّي إلاّ بطريق حلال .

هذه الزوجة هي قرّة العين لزوجها ، وهى عنصر أساسي من عناصر السعادة في الحياة ، كما قال ﷺ : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » (٤) . وعنه ﷺ : « أربع من أعطيهنّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه حُوباً فى نفسها وماله » (٥) .

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة ، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن ، الجامع الصغير : ٢ / ١٤٢) قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعّفه المنذري بعليّ بن زيد ، وقال ابن حجر في فتاويه : سنده ضعيف لكن له شاهد يدل على إنّ له أصلاً (فيض القدير : ٥ / ٤١٩) .

(٢) النساء : ٣٤ .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال المناوي في الفيض : وسببه أنّ النبى ﷺ خطب أمه هانىء فاتذرت بكبر سنّها وأنّها أمّ عيال فرفقت بالنبى ﷺ أن لا يتأذي بمسنّة ولا بمخالطة أولادها فذكره (فيض القدير : ٣ / ٤٩٢ برقم ٤٠٩٠) .

(٤) جزء من حديث سعد بن أبي وقاص ، قال المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبراني والبزّار ، والحاكم وصحّحه ، وابن حبان ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح . أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ برقم ١٠٩٩) .

(٥) قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وإسناد أحدهما جيّد ، وقال الهيثمي : رجال الأوسط رجال الصحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ برقم ١٠٩٨) والحوب هو الإثم .

هذا من خير الدنيا والآخرة ، هذا خير ما يكنز الإنسان : المرأة التى تعينه على دينه وتكون عوناً معه على الشيطان ، ولا تكون مع الشيطان عليه فيصبح معه شيطانان : شيطان من داخل نفسه ، وشيطان من داخل بيته .

كانت المرأة من نساء السّلف الصـــالح تحّرض زوجها على الجهاد : على البذل ، ليخرج في سبيل الله ، ليساهم في بناء الحضارة الإسلامية ، وإقامة دولة الإسلام ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ،ومقاومة الطواغيت الذين يتربصون السوء بالأمّة الإسلاميّة .

كانت تحّرضه على الجهاد ، فإذا جاء المثبّطون يقولون لها : كيف تركك هذا الرجل ؟ ومن أين تأكلين ؟ وكيف تُرزقين لله فتقول لهم - في إيمان الواثقة وثقة المؤمنة - : إنّ أبا فلان - تعنى زوجها - منذ تزوّجته عرفته أكّالاً وما عرفته رزّاقا ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرّزّاق !

هذه هي المرأة التى تكون قرّة عين ، أمّا المرأة الأخرى فهي من فواقر الدهر ، كما جاء في الحـــديث : « ثلاثة مـــن الفـــواقر [أى من المصائب التى تكسر فِقار الظهر] : إمام إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر ، وجار سَوْء إن رأى خيراً دفنه وإن رأى شرًّا أذاعه [الخير يُغطّى عليه والشرّ يذيعـــه فـــي كلّ مكان كأنّه ميكرفون ، لا يصبر على جاره ولا يراعي حقّه] ، وامرأة إن حَضَرْتَ آذَتْكَ ، وإن غِبْتَ عنها خَانَتْكَ » (١) . والعياذ بالله .

وكما جاء فى الحديث الآخر : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (٢) .

فهذه مصادر النكد في حياة الناس ، في الداخل والخارج .

---

(١) من حديث فضالة بن عبيد ﷺ ، قال ، قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد لا بأس به ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد ، ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله وثقوا (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٩٠ - ٦٩١ برقم ١٥٢٩) .

(٢) هو جزء من حديث سعد بن أبى وقّاص السابق ، أنظر تخريجه ص : ١٦٩ .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ (١) :

ومن أراد قرّة العين فعليه - من أوّل الأمر - أن يختار ذات الدين ، التى تقرّ عينه ، وتشرح صدره ، وتعينه فى أمـــر دينه ، كما جـــاء في الحديث الصحيح : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢).

أهمّ هذه الأربع التي يحرص النّاس عليها : ذات الدين « فاظفر بذات الدين » لتكون عوناً لك ، لتكون معك في معركة الحياة ولا تدعك أبداً .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ :

وكما يدعو الرجال بهذا ، تدعو النّساء أيضاً . تدعو المرأة أن يهب الله لها زوجاً صالحاً ، يأمرها بإقامة الصلاة والزكاة - كما كان يفعل إسماعيل عليه السلام ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٣) - يدعوها إلى الخير ، ويحذّرها من الشرّ ، وليس ككثير من أزواج هذه الأيّام ، الذين لا يهمّهم صلاة نسائهم ولا صيامهنّ ، ولا يسألون : أقمن حدود الله أم ضيّعنها ؟ بل هناك من الأزواج من ضاع في طريق الشيطان ، ويريد أن يضيع أهله معه .

ما أكثر ما تأتيني الرسائل ، وما أكثر ما تأتيني المكالمات ، تشكو من صنف من النّاس .. من رجل يحرّض زرجته على المعصية ، يأمرها أن تقدّم له الطعام فى نهار رمضان ، بل تقدّم له الخمر في نهار رمضان .

ما أكثر الأزواج الذين تشكو منهم زوجاتهم ، يشكين من أفعالهم... من تركهم الصلوات ، واتباعهم الشهوات ، وارتكابهم الموبقات .

فممّا تدعو به أَمَةُ الرحمن - أيضاً : أن يهب الله لها زوجاً يقرّ عينها ، يعينها على الطاعة . فإنّ من أعظم الآفات : أن تُبتلى المرأة المؤمنة بزوج لا يخشى الله ، لا ينحنى ظهره لله راكعاً ، لا يقيم فرائض الله ، ولا يعظّم شعائر الله .

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنّسائي ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وقوله « تربت يداك » : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هي هنا دعاء له بكثرة المال ، أي : اظفر بذات الدين ، ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٢ - ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٦) .

(٣) مريم : ٥٥ .

ما أكثر ما نرى هذا في حياتنا !

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ :

يدعون الله بصلاح الأزواج ، وصلاح الذرّيّة .

إذا كان الإنسان يريد الخير ، فأقرب من يرجو له الخير : زوجته ، وذرّيّته : أبناؤه .. بناته .. أحفاده ، يرجو لهم الهداية والخير .

سئل الحسن عن (قرّة الأعين) في هذه الآية : أهي فى الدنيا أم في الآخرة ؟ فقال : لا والله ، بل في الدنيا ، وقال عكرمة في تفسير قرة الأعين : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله .

إنّ المؤمن لا تقرّ عينه بمجرّد أن يكبر أولاده ، ولا بمجرّد أن يكسبوا الأموال .. أن يصبحوا من الأثرياء .. أن يكون في أرصدتهم الملايين ، ثمّ يكون مصيرهم إلى النّار وبئس القرار .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ [1] ، على كلّ مؤمن أن يقي أهله النار كما يقي نفسه .

قوا زوجاتكم ، قوا أبناءكم وبناتكم ، احموهم من النار ، أبعدوهم عن طريق النّار .

أتطمئن يوماً أو يثلج صدرك ، إذا رأيت ولدك وَفِلْذة كبدك في النّار ؟ .

هبه أصبح من أصحاب الملايين أو البلايين ، أو من الكبراء والسلاطين : ما قيمة هذا إذا انتهى مآله إلى جهنّم والعياذ بالله ؟ .

« كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيّته ، والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيّته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها ، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته ، وكلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته » [2] .

---

(١) التحريم : ٦ . وتتمّتها : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٨) .

الكل راع ، عليه أن يرعى أمانة الله فيما استرعاه ، و « إنّ الله سائل كلّ راع عمّا استرعاه ، حفظ أم ضيّع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » (١) .

وأقرب ما يُسأل الإنسان عنه: أهله .. أولاده .. زوجته .. ابنه .. ابنته . هؤلاء ماذا صنعت معهم ؟ هل وقيتهم النّار ؟ هل علّمتهم الخير؟ هل دعوتهم إليه ؟ هل حذّرتهم من الشر ، وبصّرتهم بعواقبه وآفاته ؟

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ :

وممّا يجعلهم قرّة عين : أن يكونوا بررة ، يعرفون حقّ آبائهم وأمّهاتهم ، كما يعرفون حقّ الله تبارك وتعالى . فإنّ من مكدّرات الحياة أن يجد الإنسان ابناً عاقًّا ، يتعب فى تربيته ، ويكدح في السعي عليه ، حتى يصبح شاباً قوياً مفتول الذراعين ، فإذا هو بعد ذلك يتنكّر لأهله .. يتنكر لأبيه وأمّه ، وقد يتطاول عليهما بالقول أو الفعل ، مع أنّ الله تعالى يقول : ﴿ .. فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (٣) .

طالما شكا النّاس قديماً وحديثاً من عقوق الأولاد الذين لا يعترفون بالجميل لأهله ، وكثيراً ما يفعل الولد هذا طاعة امرأته ، أو طاعة لشيطانه ، أو طاعة لهواه ، وهذا من أسباب البلاء ، كما جاء في حديث الترمذى : « إذا فعلت أمّتى خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء - وذكر منها : وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمّه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه » (٤) .

---

(١) رواه النسائى ، وابن حبان ، عن أنس ﷺ ، قال الأستاذ القرضاوى : وعزاه في الجامع الصغير إلى النسائي أيضاً ويبدو أنه في « الكبرى » ، لم أجده في مظانه في « الصغرى » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٦٢ برقم ١١٤١) ، وقال المناوى : ورواه عن أنس أيضاً البيهقى في الشعب وفيه معاذ بن هشام حديثه في الستة لكن أورده الذهبى فى الضعفاء وقال : قال ابن معين : صدوقاً وليس بحجة ، وقال غيره : له غرائب وتفرّدات (فيض القدير : ٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ١٧٤٥) .

(٢) طه : ١٣٢ . (٣) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) رواه الترمذي بسند ضعيف عن علي ﷺ . أنظره كاملاً في ص : ١٠٠ .

ليس هذا من شأن الإنسان المؤمن .

شكا أحد الشعراء قديماً ابناً عاقًّا له فقال :

غذوتك مولوداً وعُلتك يافعاً ... تعلّ بما أُسدي إليك وتنهل

إذا ليلةٌ نابتك بالشجو لم أبت ... لشكواك إلاّ ساهراً أتململ

كأنّي أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعيني تَهْمِل

فلّما بلغت السّنّ والغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤَمّل

جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنّك أنت المنعمُ المتفضّلُ !

هذا لا يكون قرّة عين أبداً ، إنّما يكون نكداً وغصّة في حلق أبيه .

نكران الجميل شيء يؤذي النفس ، ويجرح القلب ، ولا سيما إذا جاء من أقرب النّاس إليك ، إذا طُعنت من أحبّ النّاس إليك ، وأعزّهم عليك : من ابنك ، من بنتك ، من زوجتك ، من أقاربك .

ولهذا سأل عباد الرحمن ربّهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذرّيّاتهم قرّة أعين ، ويؤدّون حقّ الله ، ويؤدّون حقّ الأبوين : ﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

هم- أيضاً - أرادوا أن يمتد الخير في الناس ، وأن يكون لهم مكان في عالم الخير والهدى ، وأن يكونوا أئمّة للمتقين ، وهذا طموح لا غبار عليه ، لأنّه ليس طموحاً يتعلّق بالدنيا ، ولا يتعلّق بالدرهم والدينار ، ولا بالمناصب ، وإنّما يريدون أن يكونوا قدوة لأهل الخير ، يقتدي بهم النّاس ، ولا حرج من أن يسأل المؤمن ربه أن يكون إماماً في الخير .

والإمامة نوعان : إمامة في الخير ، وإمامة في الشرّ .

والأئمة نوعان : أئمّة يدعون إلى الجنّة ، وأئمّة يدعون إلى النّار والعياذ بالله .

وصف الله أئمّة الخير بقوله في بعض رسله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (١) .

---

(١) الأنبياء : ٧٣ .

وقال في جماعة آخرين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) . فمن أراد الإمامة فعليه أمران : الصبر ، واليقين ، الصبر في مقاومة الشهوات ، واليقين في مقاومة الشبهات ، وبذلك يستقيم فكره ، ويستقيم سلوكه .

هذا شأن أئمّة الخير .

أمّا أئمّة الشر فمثل : فرعون وهامان وقارون ، ومن على شاكلتهم ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾: ولكن أيّ إمامة هذه؟ إنّها إمامة في الشرّ .. في الطغيان .

﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ : ما أكثر الأئمّة الذين يدعون إلى النّار اليوم ، يدعون بأقلامهم ، يدعون بألسنتهم ، يدعون بأفكارهم ، يدعون بكتبهم .. بصحفهم .. بأقلامهم ومسلسلاتهم .. أئمّة يدعون إلى النّار من أجابهم إلى دعوتهم قذفوه فيها ، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : « .. دعاة على أبواب جهنّم ، من أجابهم إليها ، قذفوه فيها » (٣) .

احرص - أخي المسلم - على أن تكون من عباد الرحمن ، الذين يتطلّعون إلى هذه المقامات العُلى : ﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

اللهم اجعلنا من هؤلاء ، اللهم اجعل لنا حظًّا من هذه الإمامة ، يا ربّ العالمين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

---

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) القصص : ٤١ .

(٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ... » الحديث ، رواه البخاري في الفتن ، ومسلم في الإمارة (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط : ١٥ / ١٤ - ١٥ برقم ٤٢٢٢) .

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد :

أحبّ أن ألفت أنظار الإخوة المصلّين إلى أنّ الظهر قد بكّر الآن ، فعلينا أن نبدأ مبكّرين ، ولا يتخلّف المصلّي حتى يُؤذّن الظهر ويصعد الخطيب على المنبر ، فإنّه بهذا يُحرم أجراً كثيرا .

وقد جاء في الحديث الصحيح : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأوّل فالأوّل ، ومثل المُهَجِّر كمثل الذي يُهدي بَدَنَةً ، ثمّ كالذي يُهدي بقرة ، ثمّ كبشاً ، ثم دجاجة ، ثمّ بيضة ، فإذا خرج الإمام طَوَوْا صحفهم يستمعون الذكر » (١) .

معنى هذا : أنّ (سجلّ الدوام) قد طُوي ، ومن أتي بعد ذلك يُعتبر كأنّه أتى متأخّراً عن الموعد ، فيوجه إليه بعض اللّوم ، أو على الأقل يحرم حين ذلك من أجر التكبير .

فأرجو من الإخوة أن يراعوا هذا إن شاء الله .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، إنّك سميعٌ قريبٌ مجيب الدعوات .

اللهم أكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا .

﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٢) .

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ ﴾ (٣) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، و « المُهَجِّر » : هو المُبَكِّر الآتي في أول ساعة ، وانظر تعليق الشيخ القرضاوى علي الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى : ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦ برقم ٣٧٤) .

(٢) البقرة : ٢٠١ . (٣) آل عمران : ٨ . (٤) آل عمران : ١٤٧ .

﴿ . . رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وصلّوا على نبيّكم : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) الفرقان : ٧٤ .
(٢) النحل : ٩٠ .
(٣) الأحزاب : ٥٦ .

١٣ - حقوق الإنسان في الإسلام

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

خلال الأسبوع المنصرم احتفلت الأمم المتحدة واحتفل العالم معها ، باليوم العالمي لحقوق الإنسان ، وذلك بمناسبة مرور أربعين عاماً على إعلان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) .

المسلمون أولى الناس بحقوق الإنسان :

ونحن المسلمين أوّل من يحتفل بحقوق الإنسان ويهتمّ بها ، فالإسلام - قبل أن يعلن الغرب مواثيقه عن حقوق الإنسان ، سواء من الأمم المتحدة أم من غيرها من الهيئات والثورات - قد قرّر للإنسان حقوقة منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد .

الإسلام يوازن بين الحقوق والواجبات :

لم يكن الناس يعرفون أنّ لهم حقوقاً قبل الإسلام ، كلّ ما يعرفونه : أنّ عليهم واجبات ، ولا يدرون أنّ لهم حقوقا ، فجاء الإسلام وقرّر أنّ للإنسان حقوقا تُرعى ، كما أنّ عليه واجبات تُؤدّى ، فكلّ واجب يقابله حقّ ، كما أنّ كلّ حقّ يقابله واجب .

ولهذا قامت التكاليف في الإسلام على هذين الأمرين : الواجبات والحقوق ، وهذا ما يخالف فيه الإسلام فلسفة الغرب الآن .

فالغرب ينادي دائماً بالحقوق ولا يهتمّ كثيراً بالواجبات ، حقوق الإنسان .. حقوق الأطفال .. حقوق العمّال .. حقوق المرأة ، حقوق حقوق ، وكأنّ الإنسان مُطَالِبٌ فقط بما له ، وليس مُطَالَباً بما عليه .

إذا أديت الواجبات فقد رعيت الحقوق :

الإنسان في الشريعة الإسلاميّة مخلوق مُكَلَّفٌ مُطَالَبٌ مسؤول ، أكثر ممّا هو مُطَالِب سائل ، الإنسان في الغرب أبداً يقول : ماذا لي ؟ أمّا في الإسلام فإنّه يجب أن يقول : ماذا عليّ ؟

وإنّما تُرعى الحقوق حقا ، يوم تُؤدّى الواجبات ، فحقّ كل إنسان هو واجب

على غيره : حقّ الولد في الرعاية المادية والمعنوية والتربية الحسنة هو واجب على أبويه ، وحقّ الأب في البرّ والإكرام والرعاية عند العجز أو الشيخوخة هو واجب على أولاده ، وحقّ الفقير في كفايته من العيش هو واجب على الغني ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١) .

وحقّ المحكوم في العدل وتكافؤ الفرص واجب على الحاكم .. وهكذا .

هذه الحقوق إنّما تُرعى حينما تُؤدى الواجبات ، فهذه فلسفة الإسلام الذي يمزج بين الواجب والحقّ ، بل يؤكّد كلّ التأكيد ، ويركّز كلّ التركيز على أداء الواجب ، فإنّما تضيع الحقوق حينما تضيع الواجبات .

تقرير الحقوق لأهلها دون مطالبة منهم :

جاء الإسلام وقرّر أنّ للنّاس حقوقا ، ولكلّ إنسان حقوقا . قرّر ذلك دون أن تقوم ثورة تطالب بحقوق الإنسان ، دون أن تُسيّر مظاهرة تنادي بحقّ الفقراء في أموال الأغنياء ، أو بحقّ الضعفاء على الأقـــوياء ، أو بحقّ المرأة علـــى الرجل ، أو بحقّ المحكوم على الحاكم .

لم تحدث ثورة ، ولم تحدث مطالبة ، ولكن دون أن يطالب الناس فإنّ ربّ الناس .. ملك الناس .. إله الناس ، هو الذي قرّر لهم هذه الحقوق .

قرّرها من أوّل يوم ، أوّل آيات نزلت في القرآن عُنيت بالإنسان ، ورفعت من شأن الإنسان : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، منذ هذه السطور الأولى في كتاب الله عزّ وجل ارتفع شأن الإنسان .

الإنسان في الإسلام له شأن أيّ شأن ، وهذا أساس من أسس تثبيت حقوق الإنسان .

حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على دعامتين أساسيتين :

١ - عقيدة التوحيد :

الدعامة الأولى : هى عقيدة التوحيد ، كلمة (لا إله إلاّ الله) ، هذه الكلمة إيذان بعالم جديد ، بميلاد جديد للإنسان ، تحرير للإنسان من العبوديّة ، وخصوصاً

---

(١) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ . (٢) العلق : ١ - ٥ .

من عبوديّة البشر للبشر ، لم يعد هناك إنسان يستعبد إنساناً ، ولم يعد هناك حقّ لإنسان أن يؤلّه إنسانًا .

كيف تؤلّه من هو مثلك .. من خُلق من تراب مثلك ؟ ويعود إلى التراب مثلك ؟ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ .. ﴾ (١) .

كيف تؤلّه إنساناً أنت مثله ؟ أو كيف تستعبد إنساناً هو مثلك ؟!

إنّما هي الأخوّة العامّة ، الناس جميعاً إخوة ، أبناء أب واحد ، وعبيد لرب واحد ، وهذا ما أعلنه النبي ﷺ على الملأ ، على مرأى ومسمع من الجموع المحتشدة ، التي تطهّرت ولبست ملابس إحرامها لله ، في تلك الساحة المقدّسة في حجّة الوداع .

أعلن النبي ﷺ ميثاق حقوق الإنسان الأوّل ، حينما نادي في الشهر الحرام والبلد الحرام : أيّها الناس : « ... فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ... » (٢) : لا يحلّ لأحد أن يعتدي على دم أحد .. على حياة أحد .. على مال أحد . على عرض أحد . « يا أيها الناس ، ألا إنّ ربكم واحد ، وإنّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ ، ولا لعجميّ على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى ... » (٣) ﴿ .. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴾ (٤) .

في حجّة الوداع ، وأمام هذه الجموع الهائلة ، أبلغ النبي بلاغه الأخير للنّاس ، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى : إنّ الرب واحد ، والأب واحد ، وأنّ

---

(١) طه : ٥٥ ، وتتمّتها : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) .

(٢) جزء من حديث أبي بكرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه في باب : « تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال » . أنظر : (صحيح مسلم بشرح النووى : ١١ / ١٧٠) ط . دار الفكر .

(٣) رواه أحمد عن أبى نضرة قال : حدثنى من سمع خطبة رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، قال عنه الألباني في « غاية المرام » : هذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضرّ كما هو معلوم ، ولذلك قال ابن تيمية في « اقتضاء الصراط المستقيم » ص ٦٩ : إسناده صحيح .

(٤) الحجرات : ١٣ .

الدماء والأعراض والأموال مصونة ، لا يجوز أن يُعتدى عليها ، وأنّ الناس سواسية كأسنان المشط .

قُرّرت حقوق الإنسان بناءً على أنّ النّاس عبيد لربّ واحد .

عقيدة التوحيد إذن هى الأساس الأوّل لتقرير حقوق الإنسان ، لم يعد هناك مجال لفرعون من الفراعنة ، يقول للنّاس : أنا ربكم الأعلى ، ولا لنمروذ من النماريذ يقول : أنا أحي وأميت ، ويقتل رجلاً بغير حق ويقول : قد أمته ، ويحكم على رجل بالاعدام ثمّ يعفو عنه ويقول : ها قد أحييته .

لم يعد هناك مجال لفرعون ونمروذ ، إنّما المجال الآن للراكعين الساجدين الموحّدين ، الذين يعلنون فـي كلّ حين : أشهـد أن لا إله إلاّ الله ، الألوهيّة لله وحده .

هذه الحقيقة هي بداية تحرير للإنسان ، من ظلمات القرون وظلم القرون .

كان النبى ﷺ يختم رسـائله إلى الملوك والأمراء - قيصر والنجاشي والمقوقس ، وغيرهم من ملوك النصاري ورؤسائهم - بهذه الآية : ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ .. ﴾ (١) .

ليس هناك أحد يمكن أن يكون ربًّا لأحد ، ولا لأحد أن يكون عبداً لأحد ، العبوديّة المدنيّة المعروفة لا تعنى الخضوع المطلق ، لا ، العبوديّة الحقيقيّة إنّما هي لله وحده .

هذا هو التوحيد الذي جاء به الإسلام .

٢ - تكريم الإنسان :

ثمّ كانت هناك الدعامة الثانية : وهي تكريم الإنسان .

الإسلام كرّم الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ .. ﴾ (٢) من حيث هو آدمي ، من حيث هو إنسان .

---

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) الإسراء : ٧٠ .

كرّمه بعدّة أشياء :

(أ) استخلفه في الأرض ، جعله الله في الأرض خليفة ، وهي منزلة رنت إليها الملائكة ، واشرأبّت إليها أعناقهم ، وتمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب ، فقال لهم : ﴿ .. إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (١) ، وَهَيَّأه ليقوم بهذا الدور : الخلافة في الأرض .

(ب) كرّم الله الإنسان بأن صوّره فأحسن صورته : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢) ﴿ .. وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. ﴾ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٤) .

(جـ) ثمّ زاد على ذلك بشيء أكبر وأعظم وأعمق ، هو أنّه ميزّ الإنسان بذلك العنصر الروحي ، الذي جعله مخلوقاً متفرّداً متميّزاً على غيره .

الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطيني ، ليس هو هذا الهيكل من العظام والدماء واللحم والأعصاب والخلايا والأجهزة ، هذه يشترك فيها مع الحيوان ، إنّما هو ذلك السّرّ المخبوء داخل هذا الغلاف ، الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٥) .

نفخة الروح هي التي جعلت الإنسان إنساناً ، واستحقّ بها أن تسجد له الملائكة .

هذا هو العنصر الروحي .

الإنسان حيوان عند الغربيّين :

ولذلك ليس الإنسان حيواناً كما يقول الغربيّون من قديم ، اليونانيّون من قديم قالوا : الإنسان حيوان ناطق ، أي : مفكّر ، والاجتماعيّون المحدثون يقولون عنه : حيوان اجتماعيّ ، والماركسيّون يقولون : هو حيوان منتج ، والتطوريّون يقولون : حيوان متطوّر .

---

(١) البقرة : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) التين : ٤ .
(٣) التغابن : ٣ .
(٤) الانفطار : ٦ ، ٨ .
(٥) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

على أيّ حال هو حيوان عند هؤلاء وأولئك ، وإن كان حيواناً موصوفاً بصفة من الصفات .

الإنسان مخلوق متفرّد ، ليس حيواناً ولا إلهًا :

ولكن الإنسان في الإسلام ليس حيواناً ، كما أنّه ليس إلَهاً .

هناك من ألّه الإنسان ، وهناك من هبط به إلى درك الحيوانيّة .

الإنسان ليس حيواناً ، وإن اشترك مع بعض الحيوانات في الصفات ، كما أنّ الحيوان يشترك مع النبات فى بعض الصفات ، ولكنّنا لا نعرّف الحيوان فنقول : هو نبات متطوّر ، لا ، فالحيوان غير النبات ، والإنسان غير الحيوان ، والنبات غير الجماد ، وإن كان الجميع يشترك في صفات بعضها تتميز عن بعض .

الإنسان مخلوق متفرّد :

ومن الأشياء التي ميّز الله بها الإنسان وكرّمه : أنّه سخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه .

سخّر له كلّ ما في الوجود : العالم العلوي ، والعالم السفلي ، الشمس والقمر والنجوم ، والبحار والأنهار ، والجبال والأشجار ، كلّ هذا الكون مسخّر لخدمة الإنسان .. لمنفعة الإنسان : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا .. ﴾ (١) .

الكون مسخر للإنسان ، وهذا يفيد فائدتين :

الفائدة الأولى : إنّ الطاقات الكونيّة كلّها مبذولة للإنسان ، يستطيع أن يسخّرها لخدمته : الطاقة الشمسيّة .. الطاقة الترابية .. المائيّة .. المعدنيّة .. الهوائية .. الضوئيّة ، كلّها مسخّرة للإنسان .

الفائدة الثانية : أنّ هذا الكون المسخر للإنسان ، لا يجوز أن يعبده الإنسان ، كما فعلت شعوب وأمم قديماً وحديثا ، تعبد قوى من الطبيعة هي مسخّرة لها ، قلبوا الحقائق ، الإنسان المخدوم أصبح خادماً ، والمتبوع أصبح تابعاً ، والسيّد أصبح عبداً ، الذى سُخّرت له هذه الأشياء أصبح يعبد هذه الأشياء !

---

(١) إبراهيم : ٣٣ ، ٣٤ .

الإنسان - بهذا المفهوم الإسلامي - أصبح جديراً أن تكون له حقوق ، وأن تكون له مكانة ، وأن تكون له كرامة تُرعى ، فلا يجوز لأحد مهما يكن قدره ، أن يهينهذا الإنسان ، أو يستعبد هذا الإنسان .

حقوق الإنسان منذ المرحلة الجنينيّة :

الإسلام جاء ليحترم الإنسان ، وليكرّم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، منذ يولد وإلى أن يموت ، بل قبل أن يولد له حقوق تُرى وهو جنين في بطن أمّه .

من أجل ذلك حرّم الإسلام الاعتداء على الجنين ، حتى الأم التي تحمل هذا الجنين ليس لها أن تتصرف في جنينها بالإجهاض ونحوه ، كما ينادي بذلك كثير من الغربيّين المعاصرين وتلاميذهم في ديارنا .

لم يُجز الإسلام للأب - بحال من الأحوال - أن يقتل ابنه أو ابنته من إملاق ، أو خشية إملاق ، كما كان يفعل العرب في الجاهليّة ، وخصوصاً مع البنات ، فقد كانوا يتخلّصون منهم بالوأد (دسّها حيّة في التراب) ألا ساء ما يحكمون ! ﴿ وَإِذَا الموءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) .

ولم يُجز الإسلام للأمّ أن تجهض جنينها ولو جاء من حرام .

المرأة الغامديّة المعروفة التي جاءت تطلب من النبي التطهير بإقامة الحدّ عليها ، بعد أن ارتكبت الفاحشة ، وتقول : يا رسول الله طهّرني ، أقم عليّ حدّ الله ، فأنا حُبلى من الزنى ، فلم يرض النبي ﷺ أن يقيم عليها الحدّ وقال : « فاذهبي حتى تلدى » أى أنّه إن كان لنا سبيل عليك ، فليس لنا سبيل على ما في بطنك ، ما ذنب هذا الكائن الحيّ ؟ إنّه مخلوق محترم ، لم يجن ولم يذنب ، ولا يحمل وزر غيره .

ثمّ تذهب وتأتي به بعد الولادة فيقول : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه »(٢) .

هذا هو الإسلام ، يرعى الإنسان منذ هو جنين في بطن أمّه ، كما يرعاه بعد موته ، حيث يوجب غسله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه ، وتنفيذ وصاياه ، وقضاء

---

(١) التكوير : ٨ ، ٩ .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ، باب : « حدّ الزنا » .

ديونه قبل توزيع تركته ، وحرّم التمثيل بجثته (تشويها) ولو فى الحرب ، كما حرّم كسر عظمه [1] ، وأمر ألاّ يذكر الموتى إلاّ بخير ، فقد أفضوا إلى ما قدّموا [2] .

رعاية الإنسان من حيث هو إنسان :

الإسلام يرعى الإنسان من حيث هو إنسان ، في أيّ أرض كان ، فلا اعتبار بالأقاليم ، من أيّ لون كان ، أبيض أو أسود ، فالقيمة للإنسان من داخله وليست بلون جلده ووجهه .

يرعي الإنسان بأىّ لغة يتكلّم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [3] .

يرعى الإنسان من أىّ طبقة كان ، من طبقة الأغنياء أم من طبقة الفقراء ، من طبقة الخاصّة أم من طبقة العامّة .

بل ليس في الإسلام طبقات ، كما كان النّاس في أوربّا قديماً - هناك طبقة النبلاء ، وطبقة الفرسان ، وطبقة رجال الدين ... الخ ، طبقات تُورث ، ولكلّ منها حقوق تظلّ ثابتة لا تتغيرّ - وكما كان النّاس في فارس ، وفي الهند قديماً وإلى اليوم ، ليس في الإسلام شيىء من ذلك .

الناس سواسية ، من حيث الكرامة الإنسانيّة الكلّ سواء ، حتى اختلاف الدين لا يؤثّر في الكرامة الإنسانيّة العامّة ، وقد روى البخاريّ عن سهل بن حُنيف وقيس

---

(١) رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « كسر عظم الميت ككسره حيًّا » رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير . وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه : (المنتقى : ٢ / ٩١٩ برقم ٢٢٣٥) .

(٢) روى البخاري وأحمد من حديث عائشة : « لا تسبّوا الأموات ، فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا » ، وروى النسائي من حديث عائشة أيضاً : « لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير ، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » رمز له السيوطي بالحسن ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيّد (فيض القدير للعلامة المناوي ، الحديثان : ٩٧٦٥ ، ٩٧٨٢) ، والمراد بالاموات : المسلمون منهم ، فيحرم سبّهم ، إلاّ لمصلحة شرعيّة ، كسبّ أهل البدع والفسقة والظلمة للتحذير من الاقتداء بهم ، وكجرح الرواة وبيان حالاتهم .

(٣) الروم : ٢٢ .

ابن سعد : « أنّ النّبيّ ﷺ مرّت به جنازة فقام ، فقيل له : إنّها جنازة يهوديّ [أرادوا أن يعرفوه أنّه ليس بمسلم] فقال : أليست نفسا ؟ » [1] . بلى ، ولكلّ نفس في الإسلام حرمة ومكان .

من هنا رعي الإسلام كرامة الإنسان حيًّا وميّتًا :

رعى الإنسان حيًّا : بحفظ ماله ، وحفظ دمه ، وحفظ عرضه ، لا يجوز أن يُهان في حضرته ، أو يتكلم عنه بسوء في غيبته .

ورعاه ميّتًا فقال : « لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير » [2] « لا تسبّوا الأموات ، فإنّهم أفضوا إلى ما قدّموا » [3] .

حقوق الإنسان في الإسلام : فرائض وضروريّات :

جاء الإسلام يحافظ على حقوق الإنسان كلّها ، حقوقة المادّية والمعنويّة ، الدينيّة والدنيويّة ، العقليّة والجسميّة ، واعتبر هذه الحقوق من الضروريّات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها ، وهي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنّسل ، والمال ، والعرض .

إنّ ما يعدّه الغرب حقوقاً يعدّه الإسلام واجبات وفرائض ، وهذا أوثق وأوكد ، فحقّ الإنسان يمكنه أن يتنازل عنه ، أمّا واجبه المفروض عليه من ربه ، فيلزمه أن يراعيه ويقوم عليه ولا يفرّط فيه .

إذا كان التعلّم حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، الذي يعلّمه الإسلام أنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب : « الجنائز » باب : « من قام لجنازة يهودي » ، ومسلم في كتاب : « الجنائز » باب : « القيام للجنازة » .

(٢) رواه النسائى عن عائشة رضي الله عنها ، ورمز له السيوطى بالحسن (الجامع الصغير : ٢ / ٢٠٠) وجوّد الحافظ العراقي إسناده ، وتتمّته : « إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا ، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » . ويُستثنى من النهي ما تمسّ الحاجة إلى ذكره ، كجرحهم في شهادتهم وروايتهم ، أو تحذير من بدعتهم وفساد طويّتهم ، كما أوضح العلاّمة المناوي (فيض القدير : ٦ / ٣٩٤ برقم ٩٧٦٥) .

(٣) رواه البخاري فى كتاب الجنائز ، وابن حبان في صحيحه ، من حديث عائشة رضي الله عنها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٠٢ برقم ٢١٩٥) .

وإذا كان نقد المخطىء أو المنحرف حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، فهو يدخل في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواصي بالحقّ ، كما يدخل في باب النصيحة التي جعلها الرسول الكريم الدين كلّه ، لأئمة المسلمين وعامّتهم .

وإذا كانت مقاومة الظلم حقًّا للإنسان في الغرب ، فهي واجب على الإنسان المسلم وعلى المجتمع المسلم : « إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده » (١) .

وإذا كان لجوء المضطهد المظلوم من بلده إلى بلد آخر يأمن فيه حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم إذا استطاع إليه سبيلا ، اسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَيَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (٢) .

يوجب الإسلام على المسلم أن يدافع عن حقّه ، ولا يرضى بهوان نفسه ، ولا يفرّط في كرامته وكرامة أهله ، ولا يستسلم للظلم إلاّ من عجز وضعف ، فلا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، وفي الحديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يذلّ نفسه ؟ قال : يتعرّض للبلاء بما لا يطيق » (٣) .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، والنّسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، ورواه أحمد أيضاً فى مسنده ، من حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٤٣ برقم ١٣٧٥) .

(٢) النساء : ٩٧ - ٩٩ .

(٣) أخرجه الترمذي وصحّحه ، وابن ماجه ، من حديث حذيفة ، وقال البغوي : هذا حديث حسن غريب ،وفي سنده : على بن زيد وهو ضعيف ، والحسن مدلّس وقد عنعن ، لكن له شاهد يتقوّى به من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات (شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرناؤوط : ١٣ / ١٧٩ برقم ٣٦٠١) (الإحياء بتخريج العراقي : ١ / ٤٦) .

بهذا ارتقى الإسلام بحقوق الإنسان وحمل الفرد والمجتمع المحافظة عليها ، والمحاماة عنها ،وحمل الأمّة المسلمة عبء الدفاع عن المستضعفين المضيّعة حقوقهم ، ولو كان ذلك بإعلان الحرب ، وشنّ القتال ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (١) .

بين النظرية والتطبيق :

هذا ما جاء به الإسلام ، وطبّقه المسلمون تطبيقاً عمليًّا ، ولم يكن مجرّد فلسفة مجرّدة ، أو أفكار نظريّة ، أو أحلام طوباوية ، كجمهوريّة أفلاطون ومدينة الفارابي !

في المسجد نجد الكلّ سواسية ، في الحجّ الجميع سواسية ، أذاب الإسلام بشعائره كلّ الفوارق التي تميّز النّاس بعضهم من بعض .

الراشدون من حكام المسلمين لم يفرّقوا بين أحد وأحد ، فالنبى ﷺ وضع لهم القاعدة : « .. وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢) .

عمر والأمير الغسّاني :

هذا عمر بن الخطّاب يسوّي بين أمير وسوقة ، حينما وطئ الأعرابيّ ثوب ذلك الأمير الغسّاني - جبلة بن الأيهم - وهو يطوف بالكعبة ، وقد أسلم حديثا ، فلّما داس على طرف ردائه التفت إليه ذلك الأمير - وكان لا يزال به شيىء من كبر الجاهليّة - فلطمه على وجهه ، فذهب الرجل إلى الخليفة عمر يشكر ذلك الأمير ، فقال عمر : لطمة بلطمة ، أو يعفو ويصفح .

---

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) متفق على صحّته من حديث عائشة رضي الله عنها ، ونصه كاملا : أنّ قريشاً أهمّهم شأن المرأة المخزوميّة التي سرقت ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلاّ أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ ، فكلّمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « أتشفع في حدّ من حدود الله » ثم قام ، فاختطب ، ثم قال : « إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (شرح السنة للبغوى : ١٠ / ٣٢٨ برقم ٢٦٠٣) .

قال : يا أمير المؤمنين : أتسوّي بيني وبينه وأنا ملك وهو سُوقة ؟! فقال له : إنّ الإسلام قد سوّى بينكما ، إمّا أن يلطمك كما لطمته ، وإمّا أن ترضيه ، قال : سأحاول أن أرضيه .

ولكن الرجل بيّت في نفسه أمراً وفرّ بليل ، وخرج من المدينة إلى بلاد أخرى مرتدًّا ، والعياذ بالله ، آثر أن يبقى على عنجهيّته ، وإن عاد إلى الكفر ، ولم يقبل أن يقتص منه ، ولم يبال عمر رضي الله عنه به .

بعض الناس يقول : ألم يكن من الأولى أن يتساهل عمر في هذه القضية ونكسب هذا الأمير ؟ لا ، خسارة شخص ولا خسارة مبدأ ، ليذهب إلى الجحيم ، يعوّض الله الإسلام غيره آلافاً وآلافًا ، ولكن مبدأ المساواة - وأنّ لكلّ إنسان أن يطالب بحقّه إذا ظُلم - أعظم من ذلك الأمير الذي ارتدّ وكفر .

متي استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا ؟ :

وكلّنا يعرف تلك القصّة ، قصّة عمر مع عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب ذلك القبطيّ المصريّ بغير حقّ ، وذهب الرجل وابنه من مصر إلى المدينة - كم عانى وكم تعب حتى وصل إلى هناك ؟! - وشكا عمرو وابنه إلى عمر .

وأحضر عمر عمروا وابنه ، وقال للرجل : اضرب ابن الأكرمين - لأنّ ابن عمرو بن العاص كان يقول لابن القبطي وهو يضربه : أنا ابن الأكرمين ! - ثم قال له : أدرها على صلعة عمرو ، فما ضربك ابنه إلاّ بسلطانه ، فقال : يا أمير المؤمنين : إنّما اضرب من ضربني ، ثمّ التفت عمر إلى عمرو وقال له كلمته التاريخيّة التي تحفظها ويحفظها التاريخ : متى استعبدتم الناس يا عمرو ، وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا ؟!

كلمة عمر - التى قالها على البديهة - أصبحت تفتتح بها مواثيق وإعلانات حقوق الإنسان اليوم : إنّ الناس يولدون أحراراً متساوين [1] .

العبرة الكبيرة هنا : ما الذي جعل هذا القبطيّ يجوب الفيافي والقفار ، راكباً

---

(١) جاء في المادّة (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : «يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وُهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء » نقلا عن كتاب (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) للشيخ محمد الغزالي رحمه الله .

جمله أو دابّته حتى يصل إلى المدينة ؟ لقد كان هو ومواطنوه والآلاف من أمثاله في مصر - في عهد الرومان المسيحيّين أمثالهم - يُضربون ويُهانون ويُحبسون ويُقتلون وتراق الدماء أنهاراً، في عصور سُمّيت: عصور الشهداء ، ولم يكن يرفع أحد رأسه .

ما الذى حرّك هذا الرجل حتي قطع هذه المسافة الطويلة ؟ .

لا شيىء إلاّ اعتقاده أنّ هذا دين جديد ، جاء ينصف الناس ، ويقيم عدل الله بينهم ، ولا يقيم فوارق بين العباد ، اعتقاده هذا هوّن عليه المتاعب وبُعْد الشقّة ، فلم يعبأ بالمعاناة ووعثاء السفر ، وفراق الأهل والوطن ، من أجل أن يأخذ حقّه .

هذا ما جاء به الإسلام ، وهو غرة في جبين الإنسانيّة .

الحضارة الغربيّة وحقوق الإنسان :

الحضارة الغربيّة اليوم تُعلن حقوق الإنسان ، وهي - حقيقة - تُعنى بحقوق الإنسان في ديارها ، الإنسان هناك محترم أيّ احترام له حقوق ، له كرامة ، كلّ إنسان يعرف حقوقه التي ينصّ عليها الدستور ، ويحافظ عليه القانون ، وتقوم على رعايتها السلطة .

في داخل بلادهم كلّ الحقوق مرعيّة - فيما عدا قضيّة التمييز العنصري ، واحتقار الملوّنين - ولكنّهم إذا خرجوا من تلك البلاد لا يراعون لأحد حقًّا .

في هذه الأربعين سنة التي مضت على إعلان حقوق الإنسان ، كم انتهكت حرمات ، كم سُفكت دماء ؟ كم انتهبت أموال ؟ كم شُرّد أناس من أوطانهم وخصوصاً في أوطاننا نحن المسلمين ؟ ما أكثر الذين أوذوا وشُرّدوا ، شُرّد شعب بكامله من أرضه في فلسطين ، شُرّدت شعوب إسلاميّة من أوطانها .

هناك من المسلمين ملايين وعشرات الملايين مشرّدين في أنحاء العالم .. من بورما ، من أريتريا ، من الصومال .. من أقطار شتّى يحكمها طغاة مستبدّون ظالمون .

الغرب وراء هذه المظالم كلّها :

أليس هؤلاء هم الذين يؤيدون غارات ما يسمّى (إسرائيل) على لبنان إلى العهد الأخير ؟ ومظالم تلك الدولة المغتصبة مع أطفال الحجارة ، مع أولئك الأشبال الأطهار ؟

أليس هؤلاء وراء كلّ مظلمة ؟

نحن المسلمين أصبحت دماؤنا أرخص الدماء في الأرض ، وأصبحت أرضونا نهباً لكل طامع .

حقوقنا أين هي ؟

الإنسان في عصر حقوق الإنسان أصبح في كثير من البلاد مضيّعا .

لقد أعلنت منظمة العفو الدوليّة أنّ حوالي ثلث العالم يعيشون مضطهدين من حكومات ظالمة لا ترعى حقوقهم ، وهذه مصيبة كبرى .

أناس يُحكمون بغير إرادتهم ، أناس سُلّطوا على أناس لا يستطيعون التخلّص منهم ، هذه هي مصيبة العالم الذي يدّعى حقوق الإنسان .

كم في السجود من أبرياء ؟ كم هناك من أناس تُمزّق أجسادهم السياط ؟ كم هناك من أناس يُعانون من مظالم الفراعنة الجدد ، في عصر يُحتفل فيه بحقوق الإنسان ؟

ونحن المسلمين كم نُعاني ونُعاني من جرّاء هذه المظالم ؟ ولا يمكن أن ننال حقوقنا إلاّ أن ننتزعها من براثن الوحوش ، من أيدي أولئك المغتصبين .

لا يستطيع أحد أن ينال حقّه إلاّ بالكفاح ، إلاّ بالجهاد ، فما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة ، ولا يفلّ الحديد إلاّ الحديد .

في عصر حقوق الإنسان نبكي نحن المسلمين علي ديار وأوطان هنا وهناك مضيّعة ، وعلى إخوة لنا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، كما كانوا يعلموننا قديماً في علم الإنشاء .

نبكي على إخوة لنا هنا وهناك ، يطالبون بحقهّم ولا يجدون نصيرا .

لو أنّ إنساناً غربيًّا أصاب ظفره شيىء ، أو اختطف ، أو سُرق ، لقامت الدنيا ولم تقعد ، ولكنّ الملايين منّا نحن العرب والمسلمين يُعانون ما يُعانون ولا يكاد يلتفت إليهم أحد .

أهذا هو عالم حقوق الإنسان ؟

أين حقوق الإنسان أيّها الناس في عصر يأكل الأقوياء فيه الضعفاء .. غابة يفترس القويّ فيها الضعيف .. بحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير ؟

لا مكان إلاّ لمن يأخذ حقّه بيده ، فلنقوّ أنفسنا ، ولنعدّ العدّة ، ولنحرص على أن نكون نحن المسلمين في ديارنا مثلاً للحقوق التي يجب أن تُرعى .

كم في ديار المسلمين من حقوق تُهضم بأيدي المسلمين ؟!

لا يجوز أن نعيب على الغرب أنّه يضيّع حقوقنا ، ونحن في ديارنا مضيعو الحقوق ، يأكلها مواطنون لنا ، كلّ إنسان يقول : نفسي .. نفسي ، يقول : لي .. لي ، ولا يقول - يوماً ما - : عليّ .

هذه هي الآفة ، وهذه هي الكارثة ، ولا نجاة لنا إلاّ بالعودة إلى الإسلام ، التزامٍ بالحقوق ، والتزامٍ بالواجبات ، كما شرعها الله ، وكما جاء بها محمد رسول الله ﷺ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

فلنذكر ضعف الإنسان :

إذا كنّا تحدثنا عن حقوق الإنسان ، فينبغي أيضاً أن نذكر هذه الأيّام ضعف الإنسان .. الإنسان الذي طغى في هذا العصر ، وظنّ أنّه سيطر على شيء ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ (٢) ، ثمّ تأتي الأحداث وراء الأحداث ، لتعلّم الإنسان أنّه مخلوق ضعيف : ﴿ .. وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٣) .

أيّها الإنسان ما أنت ؟ أنت حفنة من التراب ، تتغذّى ممّا يخرج من التراب ، ثمّ تواري أخيراً في التراب ، ترابٌ يمشي علي تراب .

أيّها الإنسان المتألّه ما أنت ؟ لو أنّ السماء تمسك أمطارها عنك هل تستطيع أن

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) يونس : ٢٤ .
(٣) النّساء : ٢٨ .

تفعل شيئاً ؟ ماذا تستطيع إذا لم تنزل عليك قطرات الماء ؟ كان الناس قديماً يقولون : النيل عندنا في مصر يُغنينا عن أمطار السماء ، فلمّا شحّت الأمطار في أفريقيا لم يستطع الناس أن يفعلوا شيئًا ، ثمّ لمّا زادت الأمطار أصبح الناس يشكون الفيضان ، الفيضان يغرق ويدمّر في السودان . . في باكستان . . في بنغلادش .

ماذا تصنع أنت أيّها الإنسان ؟

ثمّ انظر أخيراً إلى ضعف الإنسان في الاتحاد السوفيتي الذي يملك القدرات العلميّة ، والإمكانات التكنولوجيّة ، والصواريخ والأقمار الصناعيّة ، والسفن الفضائيّة ، رغم هذا كلّه ، ماذا صنع السوفييت أمام هزّة أرضيّة . . زلزلة استمرّت ثواني معدودات ؟! فإذا بها تجعل عالي المدن سافلها ! ثمان وأربعون قرية دُمّرت على من فيها !

أين العلم ؟ أين الصواريخ ؟ أين الأقمار ؟ أين سفن الفضاء ؟ أين المخزونات النّوويّة ؟ أين . . أين ؟

الإنسان ضعيف أمام هذا كلّه .

اعتبر أيّها الإنسان ، واذكر بهذا أنّ هناك زلزلة أكبر من هذه الزلزلة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[1] .

اللّهمّ نبّهنا من سكرتنا ، وأيقظنا من غفلتنا ، وتب علينا توبة نصوحا .

اللّهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا .

اللّهمّ ارع أوطاننا وديارنا .

اللّهمّ ردّنا إلى الإسلام ردًّا جميلا .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا .

اللّهمّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

---

(١) الحج : ١ ، ٢ .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى سبيلك فى فلسطين ، وفي أفغانستان ، وفي أريتريا ، وفي الفلبين ، وفي كلّ مكان من أرض الإسلام .

اللهم أيدّ إخواننا المضطهدين والممتحنين ، اللهم أفكك بقوتك أسرهم ، وأجبر برحمتك كسرهم ، وتولّ بعنايتك أمرهم .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم ردّ عنّا كيدهم ، وغلّ حدّهم ، وأدل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الأحزاب : ٥٦ .